الفصل التاسع عشر

العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلومُ العقليةُ التى هى طبيعيَّةٌ للإنسانِ من حيثُ إنه ذو فكر فهىَ غيرُ مختصَّةٍ بملَّةٍ؛ بل يوجدُ النظرُ فيها لأهلِ المِلَلِ كلِّهم ويستوونَ فى مداركِها ومباحثِها. وهى موجودةٌ فى النوعِ الإنسانىِّ، منذُ كانَ عُمرانُ الخليقةِ. وتُسمَّى هذه العُلومُ علومَ الفلسفةِ والحكمةِ، وهى مشتملةٌ على أربعةِ علومٍ.

الأوَّل عِلمُ المنطقِ، وهو علمٌ يعصِمُ الذهنَ عن الخطإِ فى اقتناصِ المطالبِ المجهولةِ من الأُمورِ الحاصلةِ المعلومةِ. وفائدتُهُ تمييزُ الخطإِ من الصوابِ، فيما يلتمسُهُ الناظرُ فى الموجوداتِ وعوارِضِها؛ ليقِفَ على تحقيقِ الحقِّ فى الكائناتِ نفيًا وثبوتًا بمنتهى فكرِهِ، ثم النَّظَرُ بعد ذلك عندهم إمَّا فى المحسوساتِ من الأجسامِ العنصريَّةِ والمكوَّنةِ عنها من المعدنِ والنباتِ والحيوانِ والأجسامِ الفلكيَّةِ والحركاتِ الطبيعيَّةِ، أو النفسِ التى تنبعثُ عنها الحركاتُ وغيرِ ذلك، ويُسمَّى هذا الفنُّ بالعلمِ الطبيعىِّ وهو العلمُ الثانى منها. وإمَّا أن يكونَ النَّظرُ فى الأُمورِ التى

وراءَ الطبيعةِ من الروحانيات، ويسمُّونهُ العلمَ الإلهيَّ وهو العلمُ الثالثُ منها. والعلمُ الرابعُ وهو الناظرُ فى المقاديرِ، ويشتملُ على أربعةِ علومٍ، وهى تسمى التعاليمَ.

أوَّلُها: علمُ الهندسةِ، وهو النَّظرُ فى المقاديرِ على الإطلاقِ. إمَّا المنفصلةُ من حيثُ كونها معدودةً؛ أو المتَّصلةَ، وهى إما ذو بعدٍ واحدٍ وهو الخطُّ؛ أو ذو بعدينِ وهو السطحُ، أو ذو أبعادٍ ثلاثةٍ وهو الجسمُ التعليميُّ. ينظرُ فى هذين المقاديرِ وما يعرضُ لها، إمَّا من حيثُ ذاتِها، أو من حيثُ نسبةِ بعضِها إلى بعضٍ.

وثانيها: علمُ الأرتماطيقى [1]، وهو معرفةُ ما يعرضُ للكمِّ المنفصلِ الذى هو العددُ، ويؤخذُ له من الخواصِّ والعوارضِ اللاحِقةِ.

وثالثها: علمُ الموسيقى، وهو معرفةُ نِسَبِ الأصواتِ والنَّغمِ بعضِها من بعضٍ وتقديرُها بالعددِ، وثمرتُهُ معرفةُ تلاحينِ الغِناءِ.

ورابعها: علمُ الهيئةِ وهو تعيينُ الأشكالِ للأفلاكِ، وحصرُ أوضاعِها وتعدُّدِها لكلِّ كوكبٍ من السيَّارةِ والثابتة، والقيامُ على معرفةِ ذلكَ من قِبَلِ الحركاتِ السماويَّةِ المشاهَدَةِ الموجودةِ لكلِّ واحدٍ منها، ومن رجوعِها واستقامتِها وإقبالِها وإدبارِها.

---

(١) أريثميتيك Arithmetique: وهو علم العدد أو علم الحساب.

فهذه أُصولُ العلومِ الفلسفيَّةِ وهي سبعَةٌ: المنطقُ وهو المقدَّمُ منها وبعده التعاليمُ. فالأرثماطيقى أوَّلاً ثم الهندسةُ ثم الهيئةُ ثم الموسيقى، ثم الطبيعيَّاتُ، ثم الإلهيَّاتُ، ولكلٍّ واحدٍ منها فروعٌ تتفرَّعُ عنهُ. فمن فروعِ الطبيعيَّاتِ الطبُّ؛ ومن فروعِ علمِ العَدَدِ علمُ الحسابِ والفرائضِ والمعاملاتِ ومن فروعِ الهيئةِ الأزياجُ، وهي قوانينُ لحسباناتِ حركاتِ الكواكبِ وتعديلِها، للوقوفِ على مواضعِها متى قُصِدَ ذلك. ومن فروعِ النظرِ في النجومِ علمُ الأحكامِ النجوميةِ. ونحنُ نتكلمُ عليها واحداً بعد واحدٍ إلى آخرها.

واعلم أن أكثرَ مَن عُنِيَ بها في الأجيالِ الذينَ عرفنا أخبارَهُم الأُمَّتانِ العظيمتانِ في الدولةِ قبلَ الإسلامِ، وهما فارسُ والرومُ؛ فكانت أسواقُ العُلومِ نافقةً لديهم على ما بلغنا لما كانَ العُمرانُ موفوراً فيهم، والدولُ والسُّلطانُ قبلَ الإسلامِ وعصرهِ لهم؛ فكان لهذه العُلومِ بحورٌ زاخرةٌ في آفاقِهِم وأمصارِهِم. وكانَ للكِلدانيِّينَ ومن قَبْلَهُمْ من السُّريانيِّينَ ومَن عاصَرَهُم من القِبطِ عنايةٌ بالسِّحرِ والنِّجامةِ وما يتبعُها من الطلاسمِ. وأخَذَ ذلك عنهم الأُمَمُ من فارسَ ويونانَ؛ فاختصَّ بها القِبْطُ، وطَمى بحرُها فيهم، كما وقع في المتلُوِّ من خبرِ هاروتَ وماروتَ، وشأنِ السَّحَرَةِ، وما نقلَهُ أهلُ العِلمِ من شأنِ

البرابيّ بصعيدِ مِصرَ. ثم تتابعَتَ المَلَلُ بحظرِ ذلك وتحريمِهِ؛ فدَرَسَتْ عُلومُهُ وبطلَتَ كأن لم تكن، إلا بقايا يتناقلُها مُنْتَحِلو هذه الصنائعِ، الله أعلمُ بصحَّتِها. مع أن سيوفَ الشرعِ قائمةٌ على ظهورِها، مانعَةٌ من اختبارِها.

وأما الفرسُ، فكانَ شأنُ هذه العُلومِ العَقليَّةِ عندهم عظيمًا، ونطاقُها متَّسعًا، لما كانت عليهِ دولتُهُمْ من الضَّخامةِ واتصالِ المُلكِ. ولقد يقالُ: إنَّ هذه العُلومَ، إنما وصلت إلى يونانَ منهم، حينَ قتلَ الإسكندرُ داريا وغلبَ على مملكةِ الكينيَّةِ؛ فاستولى على كتبهم وعلومهم. إلاَّ أنَّ المسلمينَ لما افتتحوا بلادَ فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائفِ علومِهِمْ، ما لا يأخذهُ الحَصرُ؛ كتبَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصَ إلى عُمَرَ بنِ الخطَّابِ يستأذِنُهُ في شأنها وتنقيلها للمسلمينَ. فكتبَ إليهِ عمرُ أنِ اطرَحوها في الماءِ. فإن يكن ما فيها هُدًى، فقد هدانا اللهُ بأهدى منهُ؛ وإن يكن ضلالاً فقد كفاناه اللهُ. فطرحوها في الماءِ أو في النارِ، وذهبت علومُ الفرسِ فيها عن أن تَصلَ إلينا[1].

وأما الرومُ فكانت الدولةُ منهم ليونانَ أوَّلاً، وكان لهذهِ العُلومِ بينهم مجالٌ رحبٌ، وحملَها مشاهيرُ من رجالهم مثلُ أساطينِ الحكمةِ

(١) لم تثبت هذه القصة عند المؤرخين.

وغيرهم. واختُصَّ فيها المشاؤونَ منهم أصحابُ الرواقِ[1] بطريقةٍ حسنةٍ في التعليمِ. كانوا يقرأُونَ في رُواقٍ يُظِلُّهُمْ من الشمسِ والبردِ على ما زعموا. واتصل فيها سندُ تعليمهم على ما يزعمُونَ، من لدن لقمانَ الحكيمِ في تلميذه إلى سُقراطَ الدنِّ، ثم إلى تلميذهِ أفلاطونَ، ثم إلى تلميذه أرسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي[2] وتامسطيوس[3] وغيرهم. وكان أرسطو معلِّمًا للإسكندرِ مَلِكِهم، الذي غلبَ الفُرسَ على مُلْكِهِمْ، وانتزعَ المُلْكَ من أيديهم. وكانَ أرسخَهُمْ في هذهِ العُلومِ قدَمًا وأبعَدَهُم فيها صيتًا وشهرةً. وكان يسمَّى المعلِّمَ الأوَّلَ، فطار له في العالمِ ذكرٌ.

ولما انقرضَ أمرُ اليونانِ، وصارَ الأمْرُ للقياصرةِ وأخذوا بدينِ النَّصرانيَّةِ، هجروا تلكَ العُلومَ كما تقتضيهِ المِلَلُ والشرائعُ فيها. وبقيَتْ في صُحُفِها ودواوينِها مخلَّدَةً باقيةً في خزائنهم. ثم ملكوا الشامَ، وكتبُ هذهِ العُلومِ باقيةٌ فيهم.

---

(١) تطلق كلمة "المشائين" على مدرسة أرسطو وتلاميذه، وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة ويتجادلون في مدرسة الليسيوم وهم مشاة، ولأن أرسطو كان يلقي عليهم دروسه وهو يغدو ويروح. وأما كلمة "الرواقيون" لتطلق على أتباع المذهب الرواقي وهو مذهب زينون السيتيومي، وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة في رواق كبير في إحدى ساحات أثينا.

(٢) هو الإسكندر الأفروديسي أو الأفروسي، من أشهر شارحي أرسطو.

(٣) في بعض النسخ: "تامسطيون" وهو خطأ، وصوابه ما أثبت، ولد سنة ٣١٠ (وقيل ٣٢٠) وتوفي سنة ٣٩٥م، له شروحات مهمة على أرسطو.

ثم جاءَ اللهُ بالإسلامِ، وكانَ لأهلِهِ الظهورُ الذى لا كِفاءَ له، وابتزّوا الرومَ مُلكهم فيما ابتزّوه للأُممِ. وابتدأَ أمرُهُم بالسّذاجةِ والغفلةِ عن الصنائعِ؛ حتى إذا تبحبحَ السلطانُ والدولةُ، وأخذوا من الحضارةِ بالحظِّ الذى لم يكن لغيرهم من الأممِ، وتفنّنوا فى الصنائعِ والعلومِ، تشوّفوا إلى الاطّلاعِ على هذه العلومِ الحكميّةِ، بما سمعوا من الأساقفةِ والأقسّةِ المعاهدينَ بعضَ ذكرٍ منها، وبما تسمو إليهِ أفكارُ الإنسانِ فيها. فبعثَ أبو جعفرٍ المنصورُ إلى مَلِكِ الرومِ، أن يبعثَ إليهِ بكتبِ التعاليمِ مترجمةً؛ فبعثَ إليهِ بكتابِ أوقليدسَ وبعضَ كتبِ الطبيعيّاتِ. فقرأها المسلمونَ واطّلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصًا على الظفرِ بما بقى منها. وجاءَ المأمونُ بعدَ ذلك، وكانت له فى العِلمِ رَغبةٌ بما كان ينتحِلُهُ؛ فانبعثَ لهذهِ العلومِ حرصًا، وأوفدَ الرُّسُلَ على ملوكِ الرومِ فى استخراجِ علومِ اليونانيّينَ وانتساخِها بالخطِّ العربىِّ، وبعثَ المترجمينَ لذلك، فأوعى منه واستوعبَ. وعكفَ عليها النُّظّارُ من أهلِ الإسلامِ وحذقوا فى فنونِها، وانتهت إلى الغايةِ أنظارُهُم فيها. وخالفوا كثيرًا من آراءِ المعلّمِ الأوّلِ، واختصّوهُ بالردِّ والقبولِ، لوقوفِ الشهرةِ عندَهُ. ودوّنوا فى ذلك الدواوينَ، وأربَوا على مَن تقدّمَهُم فى هذه العلومِ. وكانَ من أكابرِهِم فى الملّةِ أبو نصرٍ الفارابىُّ، وأبو علىّ ابن سينا بالمشرقِ، والقاضى أبو الوليدِ ابنُ رشدٍ، والوزيرُ أبو بكرٍ ابنُ

الصائغ بالأندلسِ، إلى آخرينَ بلغوا الغايةَ في هذه العُلومِ. واختُصَّ هؤلاءِ بالشُّهرةِ والذِّكرِ، واقتصرَ كثيرون على انتحالِ التعاليمِ، وما ينضافُ إليها من علومِ النُّجامَةِ والسِّحْرِ والطِّلَّسماتِ. ووقفتُ الشُّهْرَةُ في هذا المنتحلِ على جابرِ بن حيَّانَ من أهلِ المشرقِ وعلى مسلمَةَ ابن أحمدَ المجريطيِّ من أهلِ الأندلُسِ وتلميذِهِ. ودخَلَ على المِلَّةِ من هذهِ العُلومِ وأهلِها داخلةٌ، واستهوتِ الكثيرَ من الناسِ بما جنحوا إليها وقلَّدوا آراءَها، والذنبُ في ذلك لَمَن ارتكبَهُ. ولو شاءَ ربُّكَ ما فَعَلوه.

ثم إنَّ المغربَ والأندلُسَ، لما ركدت ريحُ العُمرانِ بهما، وتناقصتِ العُلومُ بتناقصِه، اضمحلَّ ذلك منهما، إلا قليلاً من رسومه تجدُها في تفاريقَ من الناسِ، وتحتَ رِقْبَةٍ من علماءِ السنَّةِ. ويبلُغُنا عن أهلِ المشرقِ أنَّ بضائعَ هذه العلومِ لم تزل عندهم موفورةً، وخصوصًا في عِراقِ العَجَمِ وما بعده فيما وراءَ النهرِ، وأنَّهم على نَهَجٍ من العلومِ العَقليَّةِ والنقليَّةِ، لتوفُّرِ عمرانهم واستحكامِ الحِضارةِ فيهم. ولقد وقفتُ بمصرَ على تآليفَ في المعقولِ متعدِّدَةٍ، لرجلٍ من عظماءِ هَراةَ، من بلادِ خُرسانَ، يُشتَهرُ بسعدِ الدينِ التفتازانيِّ، منها في علمِ الكلامِ وأُصولِ الفقهِ والبيانِ، تشهدُ بأنَّ له ملكةً راسخةً في هذه العلومِ. وفي أثنائها ما يَدُلُّ له على أنَّ له اطِّلاعًا على العلومِ الحِكميَّةِ وتضلُّعًا بها وقَدَمًا عاليَةً في سائرِ الفُنونِ العقليَّةِ. واللهُ يؤيِّدُ بنصرِه مَن يشاء.

وكذلك بلَغَنا لهذا العهد أنَّ هذه العلومَ الفلسفيَّةَ ببلادِ الإفرنجةِ، من أرضِ رومَةَ وما إليها من العُدوةِ الشَّماليةِ نافقةُ الأسواقِ، وأنَّ رسومَها هناك متجدِّدَةٌ، ومَجالِسَ تعليمها متعدِّدَةٌ، ودواوينها جامعَةٌ وحَمَلَتها متوفِّرونَ، وطَلَبَتها متكثِّرون. واللهُ أعلَمُ بما هنالكَ، وهو يخلق ما يشاء ويختار.

obeikandl.com